بناء الشخصية المغربية التاريخية من خلال زعماء السلفية الوطنية: محمد بن العربي العلوي وعبد السلام بنونة نموذجا

عبد الالاه بوعلي
طالب باحث بسلك الدكتوراه
مختبر تاريخ، تراث، لغات وعمارة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة - المغرب

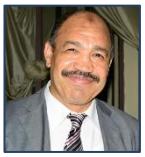

د. حاجي البكاي
أستاذ التعليم العالي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الأول بوجدة، المغرب

ملخص:

شكلت مسألة بناء الشخصية الوطنية حجر الأساس في فكر رجال الحركة الوطنية والذين حاولوا من خلال ذلك التصدي لمسالة الاستعمار الثقافي والهوياتي. نحن نعلم أن الاستعمار لم يكن يريد الأرض والخيرات التي توجد في باطنها ولا على سطحها فقط، بل حاول كذلك استعمار الانسان وذلك بتغيير العادات والثقافة والسلوكات الأخلاقية التي شكلت على الدوام المقاومة الشديدة التي تصدت لكل محاولات الاستعمار. لكن ما نريد الحديث عنه في هذا المقال العلمي، هو النموذج الإصلاحي الذي اتبعه المغرب والذي لم يكن نموذجا مستوردا بل كان عملا أصيلا وبناءً قوياً. طبعا يرجع الفضل في هذا إلى علماء المغرب ورجالاته في الفكر والإصلاح، نذكر منهم المصلح المجدد "محمد بن العربي العلوي" و"الحاج عبد السلام بنونة".

كلمات مفتاحية: المغرب، الشخصية - الوطنية، الهوية، السلفية، الاستعمار.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بوعلي، عبد الالاه. حاجي، البكاي. (2024، نونبر). بناء الشخصية المغربية التاريخية من خلال زعماء السلفية الوطنية: محمد بن العربي العلوي وعبد السلام بنونة نموذجا. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 8، السنة الأولى، ص 31-44.

Abstract:

the issue of building the national personality constructed the cornerstone of the thought of the national movement, who tried through this to confront the cultural and identity colonialism. We know that colonialism did not want just the land and the goods that existed inside it and within it, but rather it also tried to colonize men by changing customs, culture, and ethical behavior that have always formed the strong resistance that countered all attempts of colonization. However, what we want to talk about in this scientific article is the reform model followed by Morocco, which was not an imported model but rather an original and constructive work. Of course that is thanks to Moroccan scholars and men in thought and reform, among whom we mention the renewed and reformer Mohammed bin Arabi Al Alaoui and Haj Abdessalam Bennona.

Keywords : Morocco, national personality, Identity, Salafism, Colonization.

مقدمة

عندما نغوص في عمق الشخصية المغربية التاريخية ونحاول تحديد مكوناتها خاصة في الفترة المعاصرة التي تعتبر العمود الفقري للراهن نجد أن هناك لحظة ملهمة شكلت ما يمكن أن نسميه انبثاق أو ولادة هذه الشخصية المغربية التاريخية، هذه اللحظة هي لحظة الاستعمار طبعا شكل الاستعمار ذلك المخاض الذي أعطى لنا (عن وعي أو بدون وعي) هذا الأساس الذي نحن عليه اليوم.

لهذا سنحاول أن نتحدث عن نواة بناء ما يمكن أن نسميه الشخصية المغربية التي حدد ت لنا الهوية العامة لشخصيتنا المغربية

في هذا المقال ننطلق من إشكالية أن هذه الهوية كان تأسيسها و أساسها راجع الى أصول مغربية صرفة و أن التاريخ الهوياتي حاول مقاومة كل التأثيرات الأجنبية التي أرادت السيطرة على الشخصية المغربية إما عن طريق الاستعمار حيث حاول الفرنسيون توطيد دعائم شخصيتهم و طمس معالم الشخصية المغربية و بالتالي دَّك كل أشكال المقاومة و ضرب الانسان المغربي في أساسه القويم و عماده المتين ألا و هو هويته الوطنية, أو حتى على صعيد أجنبي اخر حاول اختراق المنظومة الهوياتية للمغرب حيث هبت رياح المشرق بما لم تقبله سفن المغرب ففكرة الاصلاح التي قادتها الأستانة مع مشروع محمد علي باشا و زعماء الاصلاح محمد عبده و جمال الدين الأفغاني و غيرهم من زعماء الاصلاح لم تلقى الرواج الذي كانت تريده

تتجلى أهمية الموضوع في أنه يسلط الضوء على جانب مهم من جوانب الشخصية الوطنية التي كانت البداية الأولى للمقاومة والتي ركزت أسسها على ما هو وطني إسلامي صرف وأعطت للشخصية المغربية الخصوصية التاريخية والهوياتية التي أصبحت تميز المغاربة إلى يومنا هذا.

ومن أجل تحديد هذه الأهمية في بناء مقالنا العلمي اخترنا أن نقسمه الى محورين أساسيين تناولنا فيهما شخصيتان أساسيتان نرى أن لهما الفضل الأوفر في بناء وترسيخ إشعاع هذه الشخصية الوطنية

ففي المحور الأول تناولنا دور الشيخ المجدد محمد بن العربي العلوي باني السلفية الوطنية ومجدد معالمها في منطقة كانت تابعة للاستعمار الفرنسي وهي المنطقة الوسطى.

أما في المحور الثاني، فقد تناولنا اهتمامات عبد السلام بنونة في بناء معالم الشخصية المغربية في المنطقة الشمالية التي كانت تابعة للاستعمار الاسباني بذلك نكون قد حاولنا أن نلقي نظرة عن كثب عن محاولات الاصلاح والبناء ومقاومة لم تكن بالسلاح فقط بل كانت بالفكر وترسيخ معالم شخصية قادرة على العطاء من أجل تحقيق الاستقلال.

المحور الأول: المنطقة الوسطى محمد بن العربي العلوي والهوية الوطنية

ظهرت فكرة السلفية الوطنية كاتجاه وتيار دعا إليه ثلة من العلماء والفقهاء المغاربة الذين تربوا على النضال الفكري والأخلاقي، والذين تخرجوا من المدارس الدينية الشرعية وحصّلوا بها العلم النافع في الفقه والعقيدة الإسلامية، هذه الأخيرة التي كانت قطب الرحى في الفكر الديني فبصلاح العقيدة يصلح أمر الدين والشريعة وبفسادها يفسد كل عمل. ونحن نعلم علم اليقين أن الفقهاء المغاربة كان لهم السبق في تسطير العقيدة الإسلامية الوسطية التي تقوم على الصلاح الفكري المنفتح المستنير والرافضة لكل مذهب جامد عنيد متحجر يدعوا للانغلاق والتشدد.

هكذا اختار المغاربة مذهب مالك بن أنس إمام المدينة وعلمها وأخذوا العقيدة من الشيخ أبي الحسن الأشعري وأخذوا تصوف الجنيد البغدادي إضافة إلى الركن الركين والأصل الأصيل ألا وهو البيعة وإمارة المؤمنين. بهذا سطر الفقهاء والعلماء أصول التدين ودبّجوا فكرهم وكتبهم بما حوى من أصول ثابتة وفروع متفرعة لا خلاف فيها وإنما هو اختلاف أساسه الرحمة

ولا شك أن الممارسة الدينية الشعبوية ممارسة ظنية تبنى على معتقد الناس وأفكارهم البسيطة المرتبطة دائما بما يريدون وما تشتهي أنفسهم تحقيقه، وبالتالي يخرج العامة في أفعالهم وأقوالهم عن المعين الصادق وعما سطره لهم أولوا المعرفة وأصحاب الدراية والعناية بهذه الصنائع فيضيفون وينقصون على هواهم وما تشتهي قلوبهم وبالتالي يضلون عن جادة الصواب ويخطئون موعدهم مع الحقيقة، هكذا فبعد الاتباع ظهر الابتداع فكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

خرج المغاربة من طقوسهم وأفكارهم ومعتقداتهم عما هو رسمي في الدين فأخذوا القشور وتركوا اللباب واتبعوا الهوى وأصبحت الصوفية مركزا للخرافة والدجل وادعاء معرفتها باليقين وأصبح الدين مرتبطا بطقوس الشعوذة والخرافة والتي كانت تذر على أصحابها أموالا طائلة وترفعهم إلى علية القوم وسادة الناس،

ظهرت أصوات هنا وهناك تنكر هذا المنكر وتقول أن هذه البدع لا أساس لها من الدين وأنها شركيات هي وصاحبها في النار لكن لا حياة لمن تنادي، فقد كانت الأصوات المشجعة والمحرضة

على الضلالة تفوق بكثير أصوات الحق التي كانت تعتبر نشازا. أما المستعمر (الفرنسي- الإسباني) فإنه رأى في هذه الأمور دليلا آخر قويا على أطروحته "الاستعمارية" والتي تقول بأن هذه الشعوب "بدائية" تعيش على الخرافة والدجل وأنها همجية تعبد الأوثان والأحجار وتطوف بالأضرحة وتتمسح بها وتلبس التمائم وتؤمن بالأشباح وتربط بين الخرافة والمرض وتداوي بالكتابة وروث الحيوان وغير ذلك، وأن ما تقوم به (فرنسا و إسبانيا) من بناء المستشفيات من أجل مداواة المرضى وتحضر هذه الفئة من الشعب الجاهل المتخلف والذي يعيش في مرحلة ما قبل التاريخ لهو الرسالة الحقيقية التي تدعو لها فرنسا إنها رسالة التقدم والتحضر.

لهذا نجد أن القوات الاستعمارية شجعت هذه الممارسات التي هي أقرب للخرافة والدجل منها للعقل والإيمان هذا من جهة أما من جهة ثانية، فالقوات الاستعمارية أدركت علم اليقين أن هذه الممارسات هي الطريقة الوحيدة التي من خلالها يمكن تنويم هذا الشعب، الذي لو استيقظ فإنه يسيطر على الكل فمن مصلحة فرنسا وإسبانيا أن يبقي هؤلاء في فقر وجهل ومرض دائم حتى يسهل التحكم فيهم ويسهل تحقيق ما تصبوا إليه هذه الدول الإمبريالية فالفقر والذل والهوان والجهل والتهميش هي عوامل للتحكم في الأمم والشعوب.

أمام هذه الوضعية القاتمة ظهر الشيخ محمد بن العربي العلوي الرجل المصلح الذي دعا إلى نبذ الخرافة والضلال ودعا إلى إصلاح الشخصية المغربية وإرجاعها إلى ما كانت عليه في الماضي.

ربطت علاقة صداقة متينة بين الشيخ محمد بن العربي العلوي والشيخ أبى شعيب الدكالي الذي كان شيخ الرباط وسلا والذي تعلم في السعودية فقد تتلمذ على يد عدد من المشايخ السعوديين [1] ، فأخذ عنهم منهج الوهابية (نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب) هذه الصداقة استفاد منها الشيخ محمد بن العربي العلوي حيث أمده أبو شعيب الدكالي بكتب شيخ الإسلام بن تيمية والتي لم تكن معروفة في المغرب [2] أو لم يكن يسمح بجلبها إلى المغرب ونحن نعلم ما كان يمثل شيخ الإسلام ابن تيمية فهو المعارض والعدو لكل البدع والضلالة التي كان ينشرها أرباب الزوايا ودعاة التصوف.

[1] عبد الكريم غلاب: "قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي ". دار الغرب الاسلامي، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، 2005 صفحة 336

[2] عبد الكريم الفيلالي: "التاريخ السياسي للمغرب الكبير". شركة ناس للطباعة، القاهرة الطبعة الأولى الجزء التاسع / سنة 2005 صفحة 336

لقد تزود الشيخ محمد بن العربي العلوي بهذه المضادات البدعية التي ساعدته في رسم طريق معالمه واضحة وصريحة والتي يمكن أن نحددها على الشكل التالي:

1-العمل بالكتاب والسنة؛

2-العمل بما كان يعمل به صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛

3-ترك البدع والزيغ والضلالة.

بعد أن أخذ الشيخ هذه المعالم الواضحة أصبح يعمل بها من أجل تحويل طريق الزيغ والضلالة إلى طريق للحق والهداية، فقد اختار رحمة الله عليه "التعليم والعدالة" باعتبارهما الطريقان المحددان للإصلاح فكل دولة أو شعب لا بد لهما من عدالة جيدة نزيهة وقضاء مستقل للخروج من براثين الفساد وتعليم جيد يهذب النفس ويفتح العقل من أجل تحقيق الرقي والإزهار.

لقد بدأت أولى خطواته الإصلاحية مع المولى عبد الحفيظ الذي غادر مدينة فاس إلى طنجة لكن سلطات الحماية لم تسمح للشيخ بأن يغادر مع المولى عبد الحفيظ فاضطر إلى العودة إلى فاس[1]، وبسط له جامع القرويين تلك المعلمة الشامخة البساط من أجل تقديم دروس الوعظ والإرشاد داخل هذا الجامع العامر الذي كان يأتي إليه الناس من كل حدب وصوب. كان الشيخ يؤسس لمشروعه الفكري التنموي التنويري وهو إصلاح الشخصية المغربية وبنائها لرفع التحديات في مقبل الأيام، تحديات يكون لها الأثر البالغ على المجتمع المغربي برمته وفي جميع مجالاته.

وقد ساعدته قوة شخصيته وإلمامه بالدين والفقه ومقتضيات الشريعة والعقيدة لكي يُقترح عند السلطات كقاضي وتم له ذلك بحول الله حيث عين 1915 قاضي فاس.

هكذا جمع بين الحسنيين الوعظ والإرشاد وبين القضاء ولا يمكن ونحن نذكر الشيخ أن نغفل جانب التعليم والذي كان الشيخ يقوم به بثانوية مولاي إدريس، النواة التي سيخرج منها جل رجالات الوطن وأصحاب الهمم في هذه المنطقة من ربوع المملكة هكذا تحلق شباب في زهرة العمر مِلؤهم العنفوان والاندفاع نحو القضايا العادلة قضية وطنهم المسلوب وأمتهم التي أدلج ليلها الحالك والتواقة إلى انبلاج فجر جديد

من هنا بدأت معالم الإصلاح باجتماع ثلة من الطلبة حول الفقيه العالم المجدد محمد بن العربي "علال الفاسي" و"عبد العزيز بن إدريس" و"عبد الكبير الكتاني" إلى جانب عدد من العلماء

[1] المرجع نفسه، الصفحة 153.

والأساتذة الذين ساعدوه على نهجه ونشر فكره والدعوة إلى إصلاح الأوضاع وإخراج الحق وإسكات الباطل وهم "عبد السلام السرغيني" و"أحمد الشبيهي الحسني" و"عبد الرحمن القريشي" و"محمد أقصبي"، هؤلاء جميعا أسسوا اللبنة الأولى التي أيقظت الوعي السياسي المغربي والتي حاولت جاهدة التصدي للمشاريع الاستعمارية الخبيثة التي سطرتها الإدارة الفرنسية وأعوانها.

لقد عملت هذه الثلة مجتمعة على إصلاح أوضاع الأمة من خلال إصلاح التعليم حيث طالبت بإجراءات إصلاحات في مجال التعليم العالي خاصة في القرويين وتحسين حالة الطلبة، وطالبت كذلك بحرية الرأي والعمل على خلق جو للتعبير عن هموم الشعب وحاجاته ومظالمه كما دعت إلى تبادل الزيارات مع المعاهد الأخرى من مدارس وثانويات. كثانوية مولاي إدريس بفاس من أجل تبادل الرؤى وتصحيح الأفكار وتوجيه الخطط نحو عمل واحد مشترك.

هذا طبعا داخليا أما خارجيا فقد سعت هذه الثلة من الوطنيين إلى ربط علاقات خارجية وتنظيم مراسلات مع الطلبة الذين يدرسون بالشرق "مصر وغيرها" أو بالذين هم خارج الوطن حيث كان التنسيق مع "جمعية طلبة شمال إفريقيا للمسلمين بباريس"[1].

هكذا تكاثفت الجهود وعقدت العزائم على كسر سلسلة الهزائم بهذا لقيت هذه الحركة المباركة إقبالا مهما في كل المناطق في فاس والرباط ومراكش، وبدأت شبكة من طلبة العلم والعلماء تطوف هذه المنطقة لكي تحقق أهدافها وما تصبوا إليه وبالفعل وجدت قلوبا مؤمنة وعقولا مستنيرة كانت تطلب فقط من يشد بيدها ويأخذ مهمازها من أجل السير قدما نحو الحرية ونحو الانعتاق من الظلم والجهل.

لقد حققت هذه الحركة السلفية الوطنية ما عجزت عن تحقيقه حركات أخرى سارت في طريقها ودربها، لقد عبر عن ذلك أحد طلبة الشيخ عندما قال: "ومن الحق أن نؤكد أن الأسلوب الذي اتبع في المغرب أدى إلى نجاح السلفية لدرجة لم يحصل عليها حتى في بلاد محمد عبده وجمال الدين"[2].

[1] علال الفاسي: "الحركات الاستقلالية في المغرب العربي" مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء الطبعة السادسة موحدة 2003صفحة 159

[2] المرجع نفسه، الصفحة 154.

لقد كانت أفكار الشيخ محمد بن العربي العلوي محددا للهوية المغربية ونبراسا مضيئا ليس مرتبطا بمنطقة واحدة أو إقليم واحد بل انتشرت أفكاره وتعاليمه وثقافته في ربوع المملكة الشريفة، تلقى فيها علماء وطلبة ومربيون غرسوها في مناطقهم فأثمرت وأينعت رجالا صدقوا الله على ما عاهدوه عليه. ومثل فاس كانت الرباط عاصمة المغرب السياسية والتي نقل إليها ليوطي الملك وجعلها عاصمة المغرب حتى ينسى المغاربة إرث فاس ومملكة المغرب الشريفة وحتى لا تذكرهم بمصيبتهم التي وقعت في فاس يوم 30 مارس 1912.

في الرباط ظهرت حركة مرابطة وسلفية وطنية تدعوا إلى ما دعا إليه الشيخ الجليل محمد بن العربي العلوي كيف لا وفي الرباط المعلم والمربي أبوشعيب الدكالي والذي يعتبر أبا للسلفية المغربية المجاهدة، أضف إلى ذلك أن هذه العاصمة الإدارية الجديدة تنعم بالسكينة والهدوء النسبي وعدم مضايقة العمل الطلابي، ذكرها صاحب المعسول فقال: "وإذا عرفت فاس مضايقة بسبب ما جد من نشاط أدى إلى نفي مدير المدرسة الناصرية محمد غازي فإن الرباط كانت أحسن -في غير مجال- لذلك رحلت إليها في فاتح عام 1347- 1928 لأنها كانت تتوفر على صفوة من العلماء أبوشعيب الدكالي ومحمد بن عبد السلام السايح والمدني بن الحسني فكانت سنة مباركة لم يمض علي نظيرها في كل السنوات التي قضيتها في الدراسة" [1].

لقد كانت الرباط رباطا فكريا وسياسيا حيث تجمع فيها ما افترق في غيرها فكان العلماء والوطنيون يأتون إليها من كل حدب وصوب ففي الرباط تجمعت بذور الحركة الوطنية، حيث نجد فيها المكي الناصري وأحمد بلا فريج الفرع الذي سينشط بالشمال ويؤسس حركة واعية قادرة على مواجهة المخططات الإسبانية لتدمير الشخصية التاريخية المغربية، وفي الرباط كذلك نجد المختار السوسي صاحب إيليغ وواحد من رجالات الحركة الوطنية والذي سينطلق بالفكرة إلى الجنوب المغربي بعدما تشبع في العاصمة بأفكار السلفية التنويرية المغربية كذلك لا يمكن أن نغفل رجالات الدولة الكبار الذين أسسوا للمشروع الوطني مثل عبد السلام السويسي وعبد الخالق فريج وعبد الرحمن بركاش ومحمد اليمني الناصري ومحمد بن العباس القباج ومحمد الجزولي وأحمد الشرقاوي وعبد اللطيف العتابي وعبد الله بن العباس الجراري. ونحن نذكر الرباط لا بد من ذكر توأمتها وأختها سلا والتي ظهرت فيها فكرة الإصلاح كما تقول المصادر التاريخية[2] قبل مدينة

[1] عبد الكريم الفيلالي: "التاريخ السياسي" مرجع سابق الجزء التاسع الصفحة 202 -203

[2] المرجع نفسه الصفحة 204

الرباط نفسها أو حتى قبل المدن الكبرى فالفكر الصبيحي كان منتشرا في هذه المدينة الجميلة التي شب رجالاتها على الوطنية الصادقة فأحمد الصبيحي كان رجلا وطنيا وعالما بأمور الدين والعقيدة.

لقد أبانت سلا على وطنتيها في حادثة الظهير البربري وكانت أول المدن التي خرجت لمعارضته وقراءة اللطيف في كل شوارعها ومساجدها ومدارسها الأمر الذي دل على وطنية صادقة وإخلاص تام للوطن والدين والعقيدة وتشبث بالعرش وتلاحم مع قيم المغاربة في البذل والجهد والعطاء مما جعل الشيخ محمد بن العربي العلوي يدخل إليها.

هكذا كانت المنطقة الوسطى منطقة إصلاح فكري ونواة حقيقية لبداية عهد جديد ونحن نتحدث عن هاته المنطقة لا بأس أن نعرج إلى المنطقة الجنوبية التي كانت لها صفحات طويلة في الصراع المسلح والكفاح المباشر، فقد كتبت هذه المنطقة تاريخها بدماء الشهداء الذين استنشقوا رائحة البارود منذ إعلان الحماية وقاوموا واستشهدوا في سبيل الله وسبيل الوطن، لكن هذا لا يلغي العمل السياسي، فعندما أعلن المغرب مقاومة سياسية رآها المغاربة مقاومة ضرورية ومنسجمة مع المرحلة الجديدة تكونت حركة جهادية من نوع آخر أصبح همها وشغلها الشاغل هو بناء الفكر الوطني الصادق الذي سيكون هو الملهم والقاعدة لبناء المقاومة الوطنية خصوصا وأن هذه المنطقة عرفت جبارا من جبابرة المغرب وهو التهامي لكلاوي وما عرف عنه من موالاة النصارى والارتماء في أحضانهم وبيع ذمته ووطنيته للفرنسيين

هذه المنطقة البارة منطقة مراكش عرفت رجالا دافعوا على الفكر الوطني وغرسوا قيم الجهاد الفكري السياسي لمواجهة الاستعمار واعتبروا أن التعليم الصادق الوطني وإخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم هو المشروع الوطني الأول والذي سيمكن المغاربة من اكتساب الثقة في أنفسهم أولا وبالتالي التصدي للعدو ثانيا، وقد انبرى ثلة من العلماء لهذه المهمة منهم "محمد بن عبد الله"[1] وغيرهم من رجالات الفكر السلفي الوطني، التجأ هؤلاء الوطنيون للصحافة من أجل التعبير عن قضيتهم وليشرحوا مشروعية فكرهم فقد اتصل العديد من رجالات مراكش بالصحافة الدولية خاصة صحافة دول المشرق والتي كانت تتبنى القضايا الوطنية الصادقة والتي راسلوها لكي يبسطوا قضية المغرب ويزيدوا الضغوط على الاستعمار وهي طبعا خطة ناجحة لأنها كانت تعرف بالقضية المغربية العادلة في المحافل الدولية والمنابر الإعلامية العالمية.

[1] محمد الخطيب "الحركة الوطنية في الشمال" راجعه محمد العربي المساري ومحمد معروف الدفالي، منشورات أمل، الرباط الطبعة الأولى 2020، الصفحة 40.

هكذا كانت منطقة مراكش ومعها الجنوب منطقة سارت على نهج إصلاح حقيقي ووطنية صادقة تؤذن بميلاد مغرب جديد وبميلاد حركة مباركة تقف مع المقاومة المسلحة جنبا إلى جنب في السراء والضراء من أجل تحقيق السمو والرفعة والاستقلال.

المحور الثاني: المنطقة الشمالية عبد السلام بنونة وبناء الهوية في الشمال

عندما نتحدث عن المنطقة الشمالية فإننا نتحدث عن منطقة عانت من الاستعمار وعانت من تعنت الفكر الاستعماري فمنذ حرب تطوان (1859-1860) قادت هذه المنطقة الريف وملوية شرقا صراعا مريرا مسلحا تارة وسلميا تارة أخرى، إذن فكرة الصراع والسلاح لم تكن جديدة في هذه المنطقة، لكن التغيرات التكتيكية والاستراتيجية كانت تتغير بتغير الظروف السياسية وما آلت إليه الخطط الاستعمارية. لقد استُعمِرت هذه المنطقة من طرف إسبانيا، التي أدركت وهي تعلم تاريخيا (سبتة ومليلية) أن هذه المنطقة عصية على الاقتحام والتوسع، لهذا حاولت أن تنهج نهجا مخالفا بحيث حاولت مهادنة الشعب المغربي في منطقة الشمال وعملت على توغل سلمي بطيء لكن أكيد من خلاله تتجنب الاصطدام المباشر مع الشعب المغربي لأنها أدركت أن الحرب لا تولد إلا حربا أكثر ضراوة وشدة، لهذا عملت على توغل يحفظ "حقوق" المستعمِر ويهضم حقوق المستعمَر.

لكن هيهات، فقد كانت الحركة السلفية الوطنية بالمرصاد لكل هذه المخططات الاستعمارية العقابية. إن المنطقة الشمالية تمتاز عن المناطق الأخرى الوسطى أو الشرقية بوجود الشرفاء والزوايا التي أخذت على عاتقها حماية الدين والملة الفاضلة، فقد ظهرت الزاوية الريسونية (نسبة للفاضلة العالمة الريسونية) كمحراب يدافع عن التعاليم الدينية السمحة وعن السلفية الصحيحة التي جسدت سلوك النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده الخلفاء ثم التابعين ثم تابعي التابعين إلى يوم الدين، هذه السلفية التي تدعوا إلى جهاد النفس ومحاربة البدع والأهواء والزيغ والضلال وتدعوا إلى إتباع الحق ومجاهدة النفس بالأخلاق الكريمة والتعاليم القويمة هكذا كانت الزاوية تحمل فكرا إصلاحيا وليس فكرا ضلاليا غالّا.

هكذا لمع نجم هذه المنطقة مع ثلة من رجالاتها الأفذاذ الذين اختاروا طريق الجهاد وعملوا على مقاومة العدو بالكلمة والقلم كما قاوموه بالسلاح والبندقية والرصاص، وقد انبرى بادئ ذي

بدئ كل من حمزة الطاهر والعربي بوعياد والحاج الغالي السبتي وإدريس برادة وأحمد مكواة والتحق بهم أعيان المنطقة وكبراؤها وهم الحاج عبد السلام بنونة ومحمد داوود وأحمد غيلان.[1]

هكذا تشكلت الموجة الأولى من هذه الحركة المباركة التي دعت إلى الإصلاح. إصلاح الفكر والقيام بما يلزم من أجل تحقيق الشخصية المغربية التاريخية وإعادة الروح والحياة إليها من جديد، هذه الثلة المباركة كانت على اتصال بالجمعيات التي كانت تنشط في المغرب قاطبة وخاصة الجمعية السرية "حماة الحقيقة" والتي تأسست إبان الحرب الريفية التي كانت تربط علاقات مع جميع فروع المغرب بل وحتى خارج المغرب [2].

هكذا ظهر التنسيق العام الوطني الذي كان نواة أولى مهمة لمقاومة عرفت كيف تعيد الصراع إلى مربعه الأول.

لقد ظهرت شخصية الحاج عبد السلام بنونة العصامي الوطني (1888-1935) كشخص سلفي الفطرة بانتماء صوفي ريسوني حاول من خلاله الدفاع عن مصالح الوطن العليا إضافة إلى زميله المجدد والزعيم الوطني "محمد غازي". لقد شكل هذا الثالوث "عبد السلام بنونة"، "محمد غازي" و"محمد داود" الأساس القويم لكل بناء وطني صادق.

يتميز الحاج عبد السلام بنونة والحركة السلفية الوطنية في تطوان بأنها لم تدخرا جهدا في التعريف بالقضية الوطنية في المحافل الدولية [3]، فالمنطقة الشمالية هي منطقة قريبة جدا لأوروبا بحكم القرب الجغرافي، فمنطقة طنجة كانت منطقة دولية وهي مركز عالمي للصحافة الدولية، كما كانت مزار العديد من الشخصيات المهمة التي كان لها الدور الكبير إقليميا أو عربيا بالتعريف بالقضية الوطنية.

حاول رجال السلفية الوطنية وعلى رأسهم عبد السلام بنونة التقرب للزعماء والمفكرين خارج الوطن العربي، (مراسلات مع شكيب أرسلان ومفتي القدس الحاج الحسني) لم ينسى الحاج بنونة عمله الداخلي والذي كان مرتبطا به أشد الارتباط فقد عمل على ترصيص الصفوف وتنظيم عمل وحدوي ومشروع مرتبط بالشعب. ولعل "المدرسة الأهلية" وإصلاح التعليم كان الشعار المهم

[1] محمد حسن الوزاني "حياة وجهاد" التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحررية المغربية 1 طور النشأة والمخاض الناشر: مؤسسة محمد حسن الوزاني، دار الغرب الاسلامي بيروت لبنان الصفحة 362

[2] مراد المعاشي: "مواقف واهتمامات عبد السلام بنونة" دورية كان التاريخية السنة الخامسة عشر العدد الثامن والخمسون ديسمبر 2022 الصفحة 161

[3] المرجع نفسه الصفحة 163

الذي رفعته السلفية الوطنية بالشمال حيث تثقيف الفرد وإخراجه من الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء إلى تبصر بما هو عليه واستشراف للمستقبل الذي هو أساس مغرب الغد.

لقد كان التعليم اللبنة الأولى وحجر الأساس لكل مقاومة تريد الظفر بما تريد. كما كان للحاج عبد السلام بنونة كذلك الفضل في تأسيس شركة "التعاون المغربية" التي كانت البناء الأول للاقتصاد الوطني ومحاولة للخروج من التبعية الاقتصادية التي كانت عليها المناطق المتواجدة بالشمال.

وقد كانت كذلك للحاج عبد السلام بنونة إسهامات أخرى مهمة ومتميزة وهي إسهاماته في تسيير المنطقة الشمالية فقد كان نائبا لرئيس المجلس البلدي عن المنطقة السلطانية [1] .

طبعا هذا المنصب يخول له الدفاع عن مصالح المواطن المغربي من خلال المؤسسات الرسمية والقنوات الدبلوماسية نفسها. لقد اتخذ عبد السلام بنونة موقفا مخالفا، واستراتيجية مهمة فقد رأى أن الصراع مع الإسبان لا يقتضي الابتعاد عن مجال السياسة ومجال التدبير العام، بل إن المحاكة والدخول في غمار السياسية وتسيير المرافق العامة والدخول الند للند مع المستعمر الإسباني من أجل انتزاع الحقوق التي هي شرعا حقوق الشعب المغربي. هذا الاتجاه مطلوب ومهم من أجل إيجاد موطئ قدم وبالتالي فالمؤسسات الاقتصادية والإدارية والعلمية ضرورة لا يمكن الانعزال عنها وتركها للمستعمِر لكي يعيث فيه خرابا وفسادا بل لا بد من الانخراط والاحتكاك والعمل على تسيير المرفق العام من أجل معرفة أصول السلطة وفروعها والتصدي لكل المحاولات التي يحاول من خلالها المستعمر إقصاء المواطن المغربي الحر وتهميش حقوقه.

لقد تجلت الريادة للحاج عبد السلام بنونة في أنه أسس بمعية عبد الخالق الطريس فرعا "للدفاع عن حقوق الإنسان"[2] وهي مبادرة مهمة تكشف عن المنهج الإصلاحي المستنير، إن الانخراط في هذه المؤسسات والدفاع عنها هو دفاع عن رجال الحركة الوطنية من الاعتقالات التعسفية التي واجهتهم والشطط في استعمال السلطة التي يتعرض إليها المواطن المغربي الذي يدافع عن وطنه وعرضه وهي فضح للآخر للمستعمر وفضح للإجرام الذي يقوم به اتجاه الوطن واتجاه الشعب.

[1] مراد المعاشي: "مواقف واهتمامات عبد السلام بنونة"، مرجع سابق، الصفحة 164

[2] محمد الخطيب "الحركة الوطنية في الشمال" مرجع سابق الصفحة 44

هكذا يتضح أن العمل الوطني السلفي كان عملا ثوريا ونوعيا وكانت المبادرة الوطنية في الشمال مبادرة سياسية نوعية هدفها توحيد الصفوف ورصها من أجل القضية الواحدة العادلة قضية الوطن والمواطن.

إضافة إلى ما قام به الحاج عبد السلام بنونة حيث أسس الشأن الثقافي الوطني الهادف فقد اهتم بإحداث فرق تمثيلية وطنية تزرع قيم الجهاد وتحض على البذل والعطاء والعمل الجاد الهادف والتضحية، وقد كانت البلاد بحاجة ماسة إلى مثل هذه الفرق التي تجابه بها الغزو الثقافي الإسباني بالمنطقة إن مثل هذه الفرق المسرحية تدعم النشاط الوطني وتعطي المشروعية النضالية لما يقوم به الرجال المخلصون من أجل الوطن والدين، كما أنها اللبنة الأساسية لبناء الوعي الوطني السليم.

بالموازاة مع ذلك أسس الحاج بنونة "جمعية المغرب الرياضية" [1] التي كانت تتخذ من النشاط الرياضي نشاطا وطنيا ومجالا للاجتماع الوطني من أجل خدمة المصالح العليا.

هكذا لعبت الحركة الوطنية في الشمال دورها المهم والقاضي ببث روح جديدة ودماء جديدة وتغيير وتيرة العمل وأسلوبه، فقد أصبح للقلم دور فهو سلاح مهم بيد من يجيد استخدامه ونتائجه بالغة الأهمية في تحقيق نهضة شمولية فكرية واقتصادية واجتماعية أساسية عمادها احترام المواطن، وبث روح الوطنية والإخلاص والتضحية من أجل تحقيق العزة والكرامة وبناء جيل واع قادر على حمل السلاح وحمل راية الوطنية الصادقة من أجل صباح مقبل وليل مدبر.

الخاتمة:

هكذا حاولنا في مقالنا هذا أن نلامس ما طرحناه في اشكاليتنا أعلاه، هو أن تحديد معالم الهوية للشخصية المغربية. هذا الجهد الذي كان عملا جباراً واساسيا وأصيلا من أجل بناء مقاومة سليمة.

لقد ركزت المقاومة الأولى على بناء الانسان وجعله ركيزة اساسية في المشروع الوطني وبالتالي كان لابد لهذا الانسان أن يرتكز على أسس وطنية يقوم رجال الاصلاح الفكري والعقدي بغرسها في نفوس الحركة الوطنية من أجل بدئ مشروع المقاومة التي انطلقت في البداية كمقاومة فكرية للمشروع الاستعماري والتي قاومت وحاربت كل أشكال الفرنسة أو التشريق (نسبة إلى الشرق).

[1] محمد الخطيب "الحركة الوطنية في الشمال" مرجع سابق الصفحة 44

وعملت على غرس قيم مغربية نابعة من الخصوصية الجغرافية للمنطقة.

حقيقة نحن لا ننكر أن المغرب لم ينهج سياسة احتراز جديدة اتجاه الأفكار التي كانت تأتي من المشرق من مصر أو سوريا على وجه التحديد، لكن لم يترك الباب مشرعا على مصراعيه بل حافظ على التلاقح الفكري والعقدي والديني لكنه حافظ أكثر على الطبوع والخصائص التي كانت مؤسسة حقيقة للهوية المغربية المقاومة للاستعمار الأجنبي الفرنسي – الاسباني.

وهذا الفضل كان مرده إلى رجال وطنيين غيورين على الفكر والثقافة والهوية المغربية متشبثين بأصولهم معتزين بانتمائهم الديني العقدي والفكري لهذا كانت الهوية المغربية حجرة صلبة راسخة تحطمت عليها مشاريع الغربية (الفرنسية الاسبانية) أو المشرقة (المصرية – السورية)

أمام هذا نحن لا ننكر أن البعض قد ولى وجهه صوب الغرب أو الشرق لكن الله لطف بالأغلبية التي فضلت أن تحافظ على جوهرها ونقاء سريرتها.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

- عبد الكريم غلاب: "قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي". دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى 2005
- عبد الكريم الفيلالي: "التاريخ السياسي للمغرب الكبير ". شركة ناس للطباعة، القاهرة الطبعة الأولى , 2005.
- علال الفاسي: "الحركات الاستقلالية في المغرب العربي". مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، الطبعة السادسة مصححة 2003.
- محمد الخطيب: "الحركة الوطنية في الشمال". راجعه محمد العربي المساري ومحمد معروف الدفالي، منشورات أمل الرباط، الطبعة الأولى 2020
- محمد حسن الوزاني: "حياة وجهاد" التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحررية المغربية 1 طور النشأة والمخاض، الناشر مؤسسة محمد حسن الوزاني دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان.

المجلات:

- دورية كان التاريخية، السنة الخامسة عشر العدد الثامن والخمسون ديسمبر 2022.